

القسم الثالث

محصلة وتمهيد

محصلة وتمهيد

تبين لنا من خلال العرض السابق طبيعة التباين الموجود بين المرأة والرجل ، وكيف أن هذا التباين لا يأتي فقط من الشكل الخاص للأعضاء الجنسية والحوض ، ومن وجود الرحم والحيض والحمل وخلافه . بل ينبع من طبيعة أكثر عمقاً ؛ حيث ينشأ الخلاف بين الجنسين من تكوين الخلايا والأنسجة ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة تفرزها الغدد المختلفة . فالأنثى تحمل طابعاً أنثوياً في كل خلية من خلايا جسمها ، وفي كل هرمون من هرموناتها ، وفي كل عضو من أعضائها ، وفوق كل شيء في جهازها العصبي . والرجل أيضاً يحمل طابعاً ذكورياً في كل هذه النواحي .

وتبين لنا كذلك كيف أن هذه الاختلافات التشريحية والوظيفية تتصاعد حتى تصبح اختلافات في النفس والعقل والوجدان .

وبناء على هذه الاختلافات العميقة والمتشعبة بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل ، كان منطقياً أن ينشأ اختلاف حاسم بينهما في المهمة والأهداف ، حتى يواجه كل منهما مطالب الحياة مواجهة عادلة حسب إمكانياته وقدراته .

والمرأة والرجل هما شقا الإنسانية . والمساواة بينهما في القيمة الإنسانية المشتركة مطلب عادل ومنطقي . أما المساواة الآلية المزعومة ، فدعوة فارغة ليس لها أساس من الواقع إلا الحذلقه والتشلق . هل يريد هؤلاء المدعون أن يغيروا طبائع الأشياء ؛ فيحولوا الرجل إلى امرأة ، والمرأة إلى رجل ؟! أم هل يريدون أن يحولوا كلاً منهما إلى شيء آخر متشابه ومتماثل في كل شيء ؟! إن أمراً من هذا القبيل هو خطر كبير لو حدث - ولن يحدث - لأدى بالبشرية إلى التعاسة والضياع . يؤدي بها إلى التعاسة والضياع ؛ لأن التنافر الطبيعي بين الأقطاب المتماثلة سيربز وسيستمر ، وسيقضى على معاني التآلف والانسجام والحب ؛ فالرجل لا يريد أن يقضى حياته مع رجل مثله ، والمرأة لا ترضى أن ترتبط بامرأة مثله ، تشاركها إيجابياتها وسلبياتها مشاركة الآلية والمتماثل .

إن القطب السالب لا يجذب إلا إلى قطب موجب، والقطب الموجب لا ينسجم إلا مع قطب سالب . فلو ساوينا بين الجنسين مساواة التماثل المطلق في الطبائع والسمات ؛ فلن يلتقيا أبداً وستزداد الهوة بينهما عمقاً واتساعاً ووحشية . أما التألف والانسجام والاحتواء ، فأمور لن تتأتى إلا إذا كانت منحنيات المرأة تقابل تنوعات الرجل كأنها مخلوقة على قدها لتتداخل معها وتستقر فيها . إن أملنا المنشود في تألف الرجل والمرأة ، لن يحدث إلا إذا كان كل تجويف في المرأة يقابله بروز في الرجل ، وكل تجويف في الرجل يقابله بروز في المرأة* .

إن الذين ينادون بالمساواة الآلية ، القائمة على إزالة الفوارق الأساسية بين الجنسين ، يجهلون تماماً طبيعة الأشياء ؛ ذلك أن السمات التشريحية وقوانين وظائف الأعضاء وما يتفرع عنهما من نواح أخرى - أمور محددة ومنضبطة تماماً مثل قوانين الفلك ، بحيث لا يكون في وسعنا إحداث أى تغيير أو تعديل فيها بمجرد الأمنيات الساذجة التى تجهل طبيعة الحياة والأشياء . ومن ثم يجب علينا أن نتقبلها على ما هى عليه بقبول حسن . وعلى كل من الجنسين أن يقوم بتنمية قدراته ومواهبه وفقاً لطبيعته الفطرية الخاصة ، وأن يتعد كل منهما عن محاولة التشبه بالآخر وتقليده .

إن تكوين المرأة البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من مرونة في اللمس ، ورقة في المشاعر ، وجيشان في العاطفة ، وانفعال في الوجدان .. هو الاستعداد الحقيقى لأنبيل المهام وأهمها على الإطلاق : مهمة بناء الإنسان .

وتكوين الرجل البدنى والنفسى والعقلى ، بكل ما يحويه من صلابة في العضلات ، وتحكم في العاطفة ، ومنطقية في التفكير .. هو الاستعداد القادر على صراع البقاء وتحدى قوى الطبيعة ، والملائم لتنظيم مجريات الحكم وقوانين المعيشة والاقتصاد ؛ من أجل إشباع الحاجات والرغبات ، وحماية الأسرة والمجتمع من أى خطر أو عدوان .

◌ لا أقصد هنا المنحنيات والتنوعات الجسمية فحسب ، بل أقصد أيضاً المنحنيات والتنوعات النفسية والعقلية والاجتماعية ... والأمر بالمثل بالنسبة للمقصود من لفظتى التجويف والبروز .

وبقدر ما نرفض أى شكل من أشكال المساواة الآلية بين الجنسين ؛ نؤمن ونطالب بالمساواة بينهما فى القيمة الإنسانية ، وما يتفرع عنها من وجوه يجب التسوية فيها بينهما؛ إذ أن كلاً منهما من طينة واحدة ومن أصل واحد. وكثيراً ما ذكرنا فى هذا الكتاب أننا لا نرتضى أى لون من ألوان المفاضلة أو المفاخرة التى قد يعقدها الرجل والمرأة كل ضد الآخر .

وأخيراً ، فهذه المحصلة هى التمهيد المنطقى الواجب لبيان نظرة الإسلام إلى الجنسين ، ولمعرفة كيف سوى بينهما فى الأمور التى تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان ، ولمعرفة كيف فرق بينهما فى بعض النواحي التى تنشأ من تبيان طبائعهما ، واختلاف وظائفهما ؛ لتحقيق صالحهما ، وصالح كل من الأسرة والمجتمع والحضارة .

* * *